المبحث الأول

تاريخ فكرة التطور

النسبية فى الفكر الأوربى

* نظرية دارون ونقدها

النظرية النسبية هى أساس كل ما كتبه العلمانيون عن تطوير الخطاب الدينى والسوفسطائيون القدماء فى اليونان (القرن الخامس ق.م) هم أول من قال إن المعرفة والأخلاق نسبيان. وقد زعم كبيرهم جورجياس أن: "الإنسان معيار كل شيء"، بمعنى أن الإنسان هو الذى يقرر ما هو موجب وما هو سالب من القيم الأخلاقية، وما هو صواب وما هو خطأ فى المعارف العلمية[1]. وأنكر عليهم سقراط ذلك وأثبت موضوعية الحقائق العلمية والقيم الأخلاقية. ومن هنا برزت قضية الثابت والمتغير (أو المتطور) فى الفلسفة الأوربية، غير أن بذورها كانت موجودة قبل ذلك.

وغلبت فكرة الثبات فى الفلسفة الأوربية الوسيطة والحديثة إلى أن جاء "دارون" (١٨٠٨-١٨٨٢) بنظرية التطور. ولقد نقل "هربرت سبنسر" نظرية دارون من علم الحياة إلى علم الاجتماع. وزعم أن نظرية التطور صالحة للتطبيق على المجتمع البشرى صلاحيتها للانطباق على الحيوان. وعلى هذا اعتبرت الثقافة الغربية هى قمة التطور الثقافى للبشرية! وتبعاً لهذا كانت الثقافات الأخرى متخلفة؛ والدفاع عنها دفاع ضد قانون التطور! ونظرية التطور تستند إلى فرض أساسى يقول إن الجنس البشرى عبارة عن تطور لأصول حيوانية منحطة، ذات خلية واحدة.

---

(١) كرسون: المشكلة الأخلاقية، ص٣٨

ولقد تعرَّضت نظرية دارون لانتقادات علمية. فيقول "م.م.قادرى" وهو أستاذ هندى متخصص فى علم الحياة إن دارون تشكك فى صحة نظريته قبل وفاته، وأعلن أنه إذا اكتُشف أدنى خطأ فيها كان من المحتم أن تنهار النظرية كلها. لكن أخطاء كبيرة اكتشفت. وعلى الرغم من ذلك بقيت نظرية التطور حية. فلماذا؟ إن السبب عند "قادرى" هو أن البديل لنظرية التطور هو الإيمان بالخلق كما جاء فى الدين. وهذا البديل مرفوض لدى العلماء الأوربيين الذين يمقتون الدين. ثم يورد قادرى بعض الأخطاء الكبيرة فى نظرية دارون فيقول:

(١) إن الحفريات فى الصخور والبقايا التى عُثر عليها لا تُبيِّن أى تطور بطىء من أسرة إلى أسرة. والأنواع هى هى ثابتة لا تتطور. وتظهر أنواع حيوانية بغْتة. ولا يوجد أى دليل على أنها تطورت عَبْر الزمن. ولم يعثر فى الحفريات على أية صورة متطورة. إن الأُسر الحيوانية الموجودة الآن توجد منها بقايا (رميم) ولكن لا توجد بقايا سلاسل تبين تطوراً أفْرَزَ الكائنات العضوية الجديدة. مثلاً: انقلاب القشريات إلى طيور! أو تطور الزعانف إلى أقدام، أو الأقدام إلى أجنحة. وقد حاول دارون الرد على هذا النقد قائلاً إن السجل البيولوجى ناقص جداً. والرد على ذلك هو: لماذا يبنى نظرية على معطيات ناقصة نقصاً كبيراً ؟ وسؤال آخر هو: لماذا نجد نقص السجل عند النقاط الخرجة التى ترتبط عندها أنواع الحيوانات، ثم نجده كاملاً فى داخل الأنواع؟ فيقول الدكتور كلارك . Dr. Clark وهو بيولوجى فى معهد سميثسونيان Smithsonian فى المجلة الفصلية لعلم الحياة إن الذى حدث هو سلسلة قفزات من صورة أساسية للحياة إلى صورة أخرى، ولم يحدث تطور كما زعم دارون. وقال "كلارك" أيضاً إن البراهين على الخلق كما جاءت فى الدين هى أمتن البراهين. فالله هو الخالق. ولم تتطور مجموعة حيوانية عن غيرها.

(٢) ويدعى أنصار نظرية التطور أن الحياة بدأت فى العصر السابق على العصر

الكامبـريانى Pre Camparian Age . ولكن سـجـلات الرمـائم تبـدأ فى العـصـر الكامبريانى فقط. ولا توجد أية إشارة إلى وجود متدرج من الكائن وحيد الخلية من البروتوبلازم.

(٣) فكيف يدعى أنصار التطور وجود الحياة فى العصر السابق على العصر الكامبـريانى على الرغم من عدم وجـود أى دليل على ذلك الوجود من الرميم؟ وأين البرهان على أن الحياة تطورت من جزء صغير جداً من بروتوبلازم؟

(٤) إن سجلات الرميم تبين أن الخفافيش الأولى كانت خفافيش حقيقية؛ والحيتان الأولى كانت حيتاناً حقيقية، والطائر الأول كان ريشه كاملاً، والحشرات الأولى كانت حشرات متطورة فى صورة كاملة. وكل مجموعة حيوانية أو نوع حيوانى يبدو وقد تولد بغتة. ولا توجد أنواع حيوانية متوسطة التطور تربطها بالأنواع السابقة. فلا توجد أنواع انتقالية.

(٥) يزعم أنصار التطور أن الحياة ذات الخلية الواحدة تطورت حتى صارت إنساناً، عن طريق اختلافات أو تطورات صغيرة ورثها جيل عن جيل، وتراكمت. فالاختلافات التافهة تنتقل من جيل إلى الذى يليه، وبالتدريج، ومع التراكم، يظهر حيوان جديد. وهذه النظرية تستند إلى فرض يزعم أن الاختلافات تتوارث. وهذا موضع شك ورفض، لأنه يناقض الحقيقة الثابتة. ومعظم البيولوجيين رفضوا ذلك الفرض. ويقول "هوجو دى فرى "Hugo de Vries" : إن الانتقاء الطبيعى قد يفسر بقاء الأصلح، لكنه لا يستطيع أن يفسر وصول الأصلح."

ويقول الأستاذ قادرى إن هناك أسئلة أخرى محيرة:

(أ) فكيف تطورت العين أو الأذن أو الرئة عن طريق التحورات اليسيرة وتراكمها؟

(ب) وإن للعناكب أعضاء خاصة لنسج بيوتها، وبدونها لا تستطيع الحصول على طعامها. فكيف بقيت على قيد الحياة ملايين السنين التي كانت تلك الأعضاء تتطور فيها؟ وإذا كانت تحصل على طعامها بطرق أخرى، فأية حاجة كانت هناك لظهور أعضاء لنسج البيوت؟

(ج) وإذا كانت الحيوانات المتوحشة التي تحضن صغارها تطورت ببطء عبر آلاف الملايين من السنين، فكيف بقي الصِّغار على قيد الحياة طوال تلك الحقبة ؟ وإذا كانت الصِّغار تغذى بطريقة أخرى (غير الحضانة)، فما الحاجة التي جعلت تلك الوحوش تتطور على الدوام؟

(د) ولماذا سارت الأعضاء التناسلية لدى الذكر والأنثى في تطورها بحيث يتكامل بعضها مع بعض تكاملاً تاماً ؟ ويتوازى بعضها مع بعض، على الرغم من أنها مستقلة بعضها عن بعض، وموجودة لدى أفراد مختلفين، إلى أن يبدأ استعمالها بعد ملايين السنين؟ ولْنلاحظ أن الأعضاء التناسلية المتوسطة النمو، والتي لا فائدة فيها، لا يمكن أن تبقى على قيد الحياة بحسب نظرية دارون.

(هـ) ولقد ربَّى البرفيسور مولَّر . Prof. Muller من جامعة إنديانا – ومن أنصار مذهب التطور – ٩٠٠ جيل متوالين دون انقطاع من ذباب الفاكهة، فوجد الذباب هو هو لم يتغير ولم يتطور. فلماذا ؟

(و) ليس ثمة فرض اليوم يفسر لنا أصل الحياة الأولى على الأرض. فكيف يفسر أنصار التطور–تفسيراً مقنعاً– تخلق الحياة من مادة لا حياة فيها؟

واتخذ الماديون من نظرية التطور أساساً للزعم بأن الإنسان انحدر من الحيوان، فهو حيوان في جوهره، ولا فرق بين الإنسان والوحش. وهذا خطأ، فهناك فروق، لا يستطيع الماديون إنكارها أو تفسيرها :

(أ) فكل الحيوانات، ابتداءً من أدنى الديدان إلى أعلى القرود، عبيد لغرائزها الفطرية. فهذه الغرائز تكرهها إكراهاً على إتيان أعمال معينة مميزة في مواقف معينة مميزة. فالذئب الجائع لا يستطيع تحاشي الانقضاض على خروف وديع، لكن علي ابن أبي طالب أعطى ما بيده من خبز إلى سائل في حين كان هو نفسه يعاني الجوع لمدة ثلاثة أيام. فكيف يمكن تفسير هذا المسلك الغريب حيث يتجاهل المرء غريزة البحث عن الطعام وغريزة حفظ الذات، لصالح إنكار الذات؟

(ب) وموضوع أنشطة الحيوان كلها وغايتها حفظ النفس والحفاظ على الذات، والحفاظ على النوع. فالحيوان -بحكم طبيعته ذاتها- لا يستطيع أن يفعل أي شيء يحتمل أن يضر وجوده. فلو كان الإنسان ليس سوى حيوان، فكيف نفسر حالات الانتحار والتضحية بالنفس؟

(ج) والإنسان لديه وَعْيٌ بنفسه، ولديه إرادة حرة. والوعي بالنفس والإرادة الحرة لا يتمتع بهما أي من الحيوانات. فكيف يفسر أنصار التطور هذه الحقيقة ؟

(د) والحيوان لا يستطيع أن يستجيب لأي مثير إلا بطريقة واحدة فقط. فالخلية التي بناها النحل منذ عشرة آلاف سنة كانت على النمط نفسه الذي نشاهده اليوم. ولكن الإنسان طور مسكنه من المغارة إلى ناطحات السحاب. فمن أين جاء هذا الفرق الأساسي؟

(هـ) وكل فرد من البشر لديه وَعْي فطري بوجود الله، ولديه وَعْي خُلُقي. ويوجد لديه معنى العدل ومعنى الحق على نحو فطري في كل عقل بشري. ووجودهما ليس نتيجة إقناع أو تربية. أما الحيوانات فلا تدرك شيئاً عن هذه المعاني النبيلة. فلماذا هذا الفرق؟

(و) إن لدى الحيوانات إحساسات وصور وبواعث ... إلخ، لكن الفكر بمعناه

السديد حكر على الإنسان وحده. ومجال الفكر الإنسانى يمتد من أدنى الدرجات إلى أعلاها. فهل بوسع أحد أن يفسر وجود هذا الفرق؟

(ز) والإنسان مُزَوَّد بضمير وذكاء وعقل، لكن هذه المواهب غائبة عن عالم الحيوان. فلماذا ؟

والحق أن نظرية التطور لا تزال غير قابلة للبرهنة والإثبات. وكثير من العلماء الذين قبلوها لا يؤمنون بصحتها، لكنهم يخشون زملاءهم من أنصارها. فنظرية التطور مجرد اعتقاد فى رميم لا وجود له، واعتقاد بوجود الروابط المفتقدة والتى لا تزال مفتقدة. إنه اعتقاد أعمى أملاه الخوف من الإيمان بالخلق كما جاء به الدين، شأن علماء عديدين فى الغرب ضحايا الأحكام المسبقة ضد الدين اليهودى والمسيحى. وهكذا خضعوا لمزاعم غير علمية، ونتيجة لذلك اعتنقوا الفلسفة المادية(١).

هذه هى النظرية التى أريد لها أن تطبق على كل شىء، بما فى ذلك الدين: عقيدة وشريعة وأخلاقاً. وهذه هى النظرية التى رفعت كل فكرة تطورية إلى عنان السماء!

ويقول الأستاذ العقاد إن أنصار التطور: "لم يذكروا حتى الآن حيواناً تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعى، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يَثْبُت كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه"(٢).

ويقول فريد وجدى إن نظرية دارون قُبلت لدى العلماء: "لأنها أقرب لحل المعاضل العلمية"، لا لأنها أصبحت من المعلومات الممكن إثباتها بالحس".

---

(1) Jameelah: Western Civilization Condamned Itself; p. 87

(٢) الإنسان فى القرآن ؛ (الموسوعة) ط٤ سنة ١٩٧٤م، جـ١ص٢٥٢، ٢٥٣

ثم يورد عليها ثلاثة اعتراضات رئيسية :

(١) "عدم مشاهدة أى ارتقاء من أى نوع كان فى الأحياء الأرضية من عهد ألوف عديدة من السنين" .

(٢) عدم وجود الصور المتوسطة بين الأنواع اللازمة لمذهب التسلسل، كأن يوجد -مثلاً- حيوان أرقى من القرد رتبة واحدة، وأدنى من الإنسان رتبة واحدة أيضاً" .

(٣) "طول الزمان اللازم لحصول الترقى بين الأحياء (حسب نظرية دارون) فإن عمر الأرض كما قالوا لا يكفى لإحداث كل ما يُرى من هذه الأشكال المختلفة غاية الاختلاف"(١) .

ويقول باحث علمى حديث إن هناك مشكلات تواجه نظرية دارون؛ وأكبر هذه المشكلات هى : كيف ظهر الإنسان عقب ظهور القردة ؟ "ومِنْ أى الشعب تفرع ؟ وعندئذ تأخذ الاحتمالات والتكهنات مكانها، وذلك عندما يكتنف الغموضُ الحقائقَ العلمية." ولا يزال هذا الموضوع -وهو أصل الإنسان- "موضع مناقشات وجدل، وسيستمر كذلك حتى تنجلى حقيقته.. وهنا يستطيع العلم أن يقول كلمته"(٢) .

صفوة القول إذن إن مذهب دارون فى التطور الحيوى - البيولوجى- لا يزال مجرد فرض علمى تواجه القولَ بصحته مشكلاتٌ عويصة، ومن العلماء من يرفضه، ومنهم من يقبله على علاته ويحاول ترميم تصدعاته .

لكن بعض الكتاب تناسوا هذه الحقيقة العلمية، بل راحوا يوسعون مجال نظرية

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين، جـ٤ص٣٠، ٣١

(٢) على أحمد الشحات : نظرية التطور بين العلم والإيمان : الخانجى بالقاهرة : ص١٠٤، ١٠٥

التطور لكى تشمل كل نواحى الحياة البشرية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، زاعمين أنها ليست فرضاً بل حقيقة يقينية.

وفى العالم الإسلامى كانت غاية أنصار التطور هى استبدال الحضارة الأوربية الحديثة "المتطورة" بالحضارة الإسلامية "القديمة"؛ وكذلك الثقافة الأوربية بالثقافة الإسلامية. وذلك لا يتحقق لهم إلا إذا كانت نظرية التطور حقيقة كونية شاملة، لا نظرية ظنية محدودة بحدود علم الحياة.

والحق أن الحماس لنظرية دارون بلغ أشده فى العالم كله، حتى أن "ارْنسْت هِكْل" العالم الألمانى زوَّر صور الأجنة لكى يثبت التشابه بينها؛ فهذا التشابه دليل على وجود التشابه فى الأزمنة السحيقة بين أنواع الحيوانات. واعترف "هِكْل" -تحت ضغط الاعتراضات العلمية عليه - بأنه اضطر إلى تكملة الشبه فى نحو ٨٠٪ من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول.(١) كأن المسألة لم تعد علماً، بل صارت ديانة يتعصب لها أشياعها ويزورون من أجل الانتصار لها!

● **نيتشه :**

ولعل "فردريك نيتشه" (١٨٤٤-١٩٠٠م) هو أبرز ممثل لنظرية التطور فى مجال الفلسفة الأخلاقية. فهو يعتقد أن القيم نسبية، وأنها من صنع الإنسان، كما قال السوفسطائية. وقد حمل على المسيحية بشدة بوصفها: "ورشة لتصنيع القيم الفاسدة"(٢).

زعم "نيتشه" أن الإنسان هو الذى يُضْفى القيم على الأفعال أو يجردها منها بإرادته. والإنسان لا يثبت على إرادة، وإنما هو يتغير ويتطور. وتبعاً لذلك كان من المحتم أن تتطور القيم بتطوره(٣).

---

(١) عباس محمود العقاد: الإنسان فى القرآن، ص٣١١

(2) Kenedy; Nietzsche; p. 55

(3) Kenedy; Nietzsche; p. 50

فلكل عصر قيمه، ولكل عصر تدرج خاص للقيم ترتفع فيه بعض القيم على غيرها. فإذا كانت السلطة في المجتمع بأيدى الأرستقراطية ارتفعت قيمة القوة والتفوق. أما حين يستولى العبيد على زمام الأمور فإنهم يرفعون قيمة الرحمة والشفقة والصبر والتواضع، ويجردون القوة والتفوق من القيمة أو يخفضونها في أدنى السُلَّم!

ومن الجلى أن نظرية "نيتشه" باطلة ومتناقضة في باطنها. وسوف نعرض لفكرة النسبية والتطور فيما يلى من فصول هذه الدراسة. فنكتفى الآن بالقول إنه إذا كانت قيم السادة هى الصحيحة وقيم العبيد هي الزائفة، كان معنى هذا أن القيم موضوعية، ويمكن أن يقال إن بعضها صواب وبعضها خطأ. ولو كانت مرهونة بإرادة الإنسان لما أمكن ذلك.

المذاهب المضادة للنسبية

وكان الفيلسوف الألمانى الأكبر عمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤م) قد سبق نظرية دارون، وأرسى القيم على أساس ثابت وطيد، ورفض نظرية النسبية رفضاً باتاً.(١) فعند "كانط" لا يمكن أن تكون القيم ملزمة لأحد إلا إذا كانت مطلقة، ثابتة، ضرورية. ومعنى هذا أن التطور لا مجال له في عالم القيم.

- وسار في تيار "كانط" فلاسفة أوربا الكبار من أمثال "سيد جويك" و"بتلر" و"مور" و"شيلر" و"نيكولاى هارتمن" الذى أكد بقوة أن القيم مثل البدهيات الرياضية في ثباتها وإطلاقها، وأن إرادة الإنسان هى التى تتبدل بتأثير القيم(٢). هذا مع ملاحظة أن هارتمن وضع مذهبه بعد ذيوع نظرية دارون بحوالى سبعين عاماً.

ولا يزال الفكر الغربى حتى اليوم يتأرجح بين النسبية والتغير والتطور الشامل

(1) Brehier (Emile); Histoire de la Philosophie; vol. 2; p 551
(2)N. Hartmann; Ethics; vol. 1; p207

والجذرى من جهة، والثبات والإطلاق من جهة أخرى. فهذا "جون جاردنر" John W. Gardner – وزير التربية الأمريكى الأسبق، ينصح الشباب بأن يعيدوا خَلْق القيم بدون انقطاع، أو أن يبثوا روحاً جديدة فى القيم المعروفة، وإلا فإنها تتآكل وتتدهور؛ وإن الذين يفعلون ذلك يستطيعون تجديد النظام الأخلاقى. وفى الوقت نفسه يقرر أنه لا بد من وجود إجماع على بعض القيم وإلا تمزق المجتمع. والمجتمع الأمريكى مجمع على قيم: الحرية، والمساواة فى الفرص، وكرامة الفرد، والعدالة، وحلم الأخوة. ويضيف فى أسف قوله: لكننا نعرف هذه المثل ولا نحترمها.(١) وهكذا يبدو أنه يعترف بنوع من القيم الثابتة أو العامة، لكنه متردد، وغير قاطع فى آرائه، وأسلوبه يفتقر إلى التقرير الدقيق.

وهذا مثال آخر لكاتب متخصص فى علم الأخلاق يذهب مذهب كانط وشيلر وهارتمن، فيقرر بوضوح أن القيم مطلقة؛ إنه "ويلتون J.Welton" الذى يميز بين غايات الإنسانية ووسائل بلوغها: "فإن الوسائل لبلوغ تلك الغايات ليس سوى قيمة نسبية. فنحن نحدد لأنفسنا غاية ننشد تحقيقها، لأننا نقدرها بوصفها خَيِّرة فى ذاتها، وبوصفها تحمل قيمتها فى باطنها. لكننا نختار الوسائل التى تفضى بنا إلى تلك الغاية. فقيمتها –أى الوسائل– قيمة أداة "instrumental"(٢) وكذلك معيار القيمة: "مستقل عن الرغبات والأهواء؛ إنه معيار مطلق universal صحيح لدى الجميع." ثم يذكر بعض القيم المطلقة، وهى: السعادة، والحكمة والجمال والسمو الأخلاقى. إنها خيرات مطلقة، واضحة بذاتها، مثل البدهيات الرياضية ومبادئ المنطق(٣).

ويقول الأستاذ Paul Ramsey فى جامعة برنستون إن: "القوائم الخاصة بما

(1) John W Gardner; The Individual and Today's World; p . 104
(2) j. Welton: Ground Book of Ethics; p. 69
(3) Ibid; p. 72

يجوز وما لا يجوز ليس لها معنى." ويقول" جوزيف فلتشر"Joseph Fletcher الأستاذ فى المدرسة اللاهوتية فى كامبردج إنه لا ينبغى أن تدين الكنيسةُ أية علاقة جنسية إدانة مطلقة." ويقول إن الأخلاق الجديدة معيارها النهائى للصواب والخطأ، ليس أمراً مقدساً، وإنما هو الإدراك الحسى الذاتى للفرد لما هو خير لنفسه ولجاره، فى كل موقف يمر به." (١) فهذه نسبية أخلاقية نفعية، سوفسطائية دارونية نيتشوية.

ولعل هذا هو سبب الفوضى الروحية التى تحدث عنها "إريك فروم" حين قال إننا – أى الأمريكيون – أبدعنا أشياء رائعة، لكننا أخفقنا فى أن نجعل أنفسنا جديرين بها. إن حياتنا لا يسودها الإخاء والسعادة والقناعة، بل تجتاحها الفوضى الروحية والضياع الذى يقترب من حالة الجنون: "جنون شبيه بانفصام الشخصية (السكيزوفرينيا)، ينعدم فيه الاتصال بالواقع الباطنى، وينشق فيه الفكر على الوجدان. ويقول "فروم" إن الناس فى بلاده أمريكا يزعمون أنهم سعداء فى حين يبدو الخوف والذهول على الوجوه دون سبب. إنهم لا يعرفون معنى الحياة. إنهم فى حيرة. ثم يتساءل: هل العودة إلى الدين هى الحل ؟(٢).

* * *

(1) Jameelah; Islam and Modernism; p. 208

(٢) إريك فروم؛ الدين والتحليل النفسى؛ ترجمة فؤاد كامل؛ نشر مكتبة غريب؛ دون تاريخ؛ ص٧٩